جاء الإعلان
«الخصوصية» و«العمومية»...؟!

أ. د. صدقة يحيى فاضل*

ما زال كثير من أبناء مجتمعنا، وغيرهم، يسيئون فهم الكثير من المصطلحات والمفاهيم السياسية والاجتماعية الحيوية الدارجة، ومن ذلك: مفهوم «الخصوصية»، ونقيضه. ولابد من تصحيح هذه المفاهيم... تجنباً للكثير من المزالق، والأوهام. إن «الخصوصية»، أو «الذاتية»، تعني: تميز أو تفرد شخص، أو جماعة ما معينة، بخصائص وخلال معينة... يقل – أو حتى ينعدم – توفرها في غيره، من بني البشر، في ذات المرحلة الزمنية. ومعكوسها، أو نقيضها، هو «العمومية»، والتي تعني: اتسام فرد، أو جماعة ما معينة، بخصائص وخلال عامة مشتركة معينة – أو قابلة للتعيين – تسود، بصفة عامة، كل بني الجنس الإنساني (المعنى).

فلاشك أن كل فرد، وكل جماعة من الأفراد (مهما كان حجمها الكمي) له خصائص معينة، تميزه –بشكل أو آخر – عن غيره من بني جنسه. ومع ذلك، وبالتلازم، يشترك كل الناس في خصائص عامة (مادية ومعنوية) كبرى واحدة.... تجعل هذا الكائن عنصراً في جنس عام واحد.

ولعل من أدق «وسائل» فهم الأشياء – الحية وغير الحية – هي «تقسيم» الشيء العام إلى «أنواع».... يتميز كل نوع بخصائص مشتركة، لا توجد في غيره. ثم تأتي وسيلة (مدخل) المقارنة.... لتدعم الفهم، وتوثق الإفهام. فالمقارنة تعني: محاولة تحديد وتوضيح أوجه التشابه والاختلاف والتماثل فيما بين أشياء – أو كائنات – من جنس عام واحد.

وعلى سبيل المثال، كل شجر النخل نخلاً.... باعتبار وجود خصائص كبرى عامة مشتركة بين مكونات هذا الشيء. ولكن النخيل أنواع.... بسبب تفرد كل نوع بخصائص فرعية، تميزه عن غيره، من بقية أنواع النخل. العمومية تجعل كل النخل نخلاً... أما الخصوصية فتنشأ لوجود شيء من «الاختلاف» فيما بين مكونات الشيء الواحد الأكبر. وذلك ينطبق أيضا على «البشر» ومجتمعاتهم.

إن الاختلاف (أو التميز) سنة إلهية... وسبحان الذي يخلق بلايين البشر... ومع ذلك يجعل لكل فرد خصوصية خاصة به وحده. حتى الأخوين التوأم نجد أن لكل منهما أيضا خصوصيته... إنهما متشابهان، بصفة عامة، ولكن، دائما يوجد بينهما قدر – ولو قليل – من التباين والاختلاف.

وعلى سبيل المثال أيضاً، هناك في عالم اليوم أكثر من ٦,٢ بليون شخص... يشكلون جنساً عاماً واحداً. ومع ذلك، يندر أن تجد شخصين متماثلين تماماً في نمطيهما الجيني (DNA). وهذا ما مكن من استخدام ذلك القدر (البالغ الضالة) من الاختلاف الجيني في التعرف على الأشخاص، عند الضرورة.

وما ينطبق على الأفراد يسري على الجماعات البشرية، بشتى أحجامها وصورها... من العائلة، إلى العشيرة، إلى الدولة. وباختصار، فإن لكل فرد خصوصيته، وكذلك لكل عائلة، ولكل حي، ولكل جهة ومنطقة، ولكل دولة....الخ. تلك سنة البارئ في خلقه. وتجدر الإشارة هنا إلى: أن الخصوصية ليست خيرا كلها. إذ هي عبارة عن: حزمة من المزايا والعيوب (بالمقاييس الموضوعية لغالبية العالم). والنظرة الصحيحة إليها تكون بالمحاولة المستمرة للتأكيد على المزايا فيها، ونبذ العيوب.... وربما الفخر بالأولى، والخجل من الثانية.

ويصبح، اذاً، من الخطأ الادعاء بأن فرداً ما – أو مجتمع ما – له خصوصية... وغيره ليس له.... وتصوره "الوحيد" المتميز بخلال تجعله مختلفاً – أو مميزاً – عن سائر بني الإنسان (بدعا من الخلق). إن الصحيح هو أن نقول: إن هذا الفرد، أو ذاك المجتمع، يتميز بالخصائص كذا وكذا.... تجعله مختلفاً، بعض الشيء.... تماماً كغيره من المجتمعات، التي لكل منها خصوصيته، واختلافه.

لقد قال الخالق، في محكم كتابه: ((وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا....))... وذلك تأكيد على بعض الاختلاف. ومع ذلك، فإن ما يجمع بين بني البشر من خصائص عامة مشتركة (مادية ومعنوية) اكبر – بمراحل – مما يفرق بينهم. والكل لآدم، وآدم من تراب.....

كل البشر بشر، ولكن الناس أجناس (أنواع) كما يقال. وهذا يعني: أن هناك "خصائص" بشرية

24-35.indd 34
10/11/1428 08:13:28 ã